البيئة العمرانية الحديثة والمرض الاجتماعي في المدينة بالجزائر (دراسة ميدانية لمدينة باتنة)

الدكتور الديب بلقاسم*

الملخص

تبذل المجتمعات جهوداً مضنية لإنشاء بيئة سكنية توفر حياة حضرية لائقة لمواردها البشرية، وتمكن من الاستقرار والارتقاء بإنسانها إلى أقصى درجات العطاء غير أن الحضارة الضارة بتلك البيئات –رغم إيجابياتها العديدة– التي ننتجها في مدينتنا بالجزائر أضحت عاملاً فعالاً في خلخلة العديد من العلاقات الاجتماعية ودحض العديد من القيم.

تحاول هذه الورقة أن تلقي الضوء على بعض المظاهر السلبية التي خلفتها وتخلفها باستمرار هذه البيئات رغم الدراسات الوافية التي أحيطت بها من قبل الهيئات المختصة، وتتطرق إلى ذلك من خلال الإجابة عن تساؤلات عديدة تتعلق بالعلاقة بين الإنسان وبيئته الخاصة والعامة باعتبار تلك البيئة ليست مجرد غلاف معماري ولا وعاءً عمرانياً يحوي الإنسان فقط ، بل المحضن الذي يشكل شخصيته ويوجه في الكثير من الأحيان سلوكاته ، وتبحث في مدى تكامل المعادلتين البيولوجية

*قسم الهندسة المعمارية– كلية الهندسة – جامعة باتنة الجزائر

والاجتماعية وأثر ذلك في إحداث التفاعل الاجتماعي، كما تحاول استكشاف العلاقة بين هذه البيئة والمرض الاجتماعي، وإلى أي حد يمكن لكليهما التأثير في الآخر، وذلك من خلال فضاء مدينة باتنة بالجزائر.

الكلمات المفتاحية: البيئة العمرانية الحديثة، المرض الاجتماعي، العلاقات الاجتماعية، المعادلة البيولوجية، المعادلة الاجتماعية، التفاعل الاجتماعي.

مقدمة:

تبذل المجتمعات جهوداً مضنية للتغلب على المعوقات الاجتماعية التي تعدُّ بمنزلة الحواجز الزاحفة في وجه تقدمها، والتي تنطلق من واقع أن الاستقرار النفسي الناتج عن توفير البيئات المختلفة المناسبة لحياة الإنسان في كل قطاعات المجتمع، يعدُّ حجر الزاوية في تنمية هذا الأخير تنمية مستديمة متزنة. ولعل الوعاء المجالي المتمثل في البيئة العمرانية التي تستوعب هذا الإنسان هي مناط البحث وهدف الدراسات الحثيثة التي تعرفها المدينة كنتاج لتطور المجتمع ونموه، تحاول هذه الورقة أن تلقي الضوء على بعض المظاهر السلبية التي خلفتها وتخلفها باستمرار تلك البيئات رغم الدراسات الوافية التي أحيطت بها من قبل الهيئات المتعددة المختصة، وتتطرق إلى ذلك من خلال الإجابة عن تساؤلات عديدة تتعلق بالعلاقة بين الإنسان والبيئة العمرانية في مدينة باتنة بالشرق الجزائري، وما يترتب على هذه العلاقة من آثار...

1–مفاهيم أساسية نوظفها في هذه الورقة:

ماذا نعني بالمرض الاجتماعي: ندرج هذا المفهوم كمظهر من مظاهر الخلل الاجتماعي حيث يعرف عند المختصين بتفكك العلاقات الرابطة بين أفراد المجتمع أو تشنجها بما لا يدع مجالاً لإحداث الغريزة التجمعية والتبادل في إطار مجتمع محلي أو المجتمع بأكمله، وهو مفهوم شامل يندرج ضمن الاختلالات والصراعات التي تقوم من حين إلى آخر في المجتمع بوصفه ظاهرة طبيعية تخضع لها كل المجتمعات...(ابراهيم مدكور، 1975)، وسنحاول إدراجه بهذه الكيفية في محاولتنا من خلال المظاهر السلبية التي تنجر عليها تلك الاختلالات، من قبيل تشنج العلاقات الاجتماعية بين المستعملين للمجال المعماري والعمراني على الخصوص، وتعميق بعض المظاهر المناقضة للقيم المتعارف عليها في مجتمعنا (الجيرة ، التعاون...) في البيئة العمرانية في مدننا ولاسيّما الحديثة منها ، كما نحاول تحديد مدى العلاقة التي

تربطهما، ونبحث في الأسباب التي أفضت إلى ما هي عليه البيئة العمرانية في مدينتنا؟ وإلى أي حد يمكن للبيئة العمرانية أن تحدث ذلك الخلل أو المرض الاجتماعي؟

كما نوظف مصطلح **المجال** كمرادف لمفهوم **الفراغ** في هذه الورقة.

تقديم عينة الدراسة:

مدينة باتنة عاصمة ولاية الأوراس، تقع إلى الشرق من العاصمة الجزائرية بنحو 500 كم، يبلغ عدد سكانها نحو 300000 نسمة، ترتفع على البحر بـــ 600م تدرج ضمن المناطق شبه الجافة (مديرية التخطيط لولاية باتنة،2003)، تصنف في عداد المدن المتوسطة، عرفت هجرة كبيرة نظراً لموقعها وتاريخ منطقة نفوذها مما صعب استجابتها للحاجات المتنامية لسكانها، وأفرز على مجالها صوراً عمرانية معمارية متناقضة شكلاً : من عمارة فرنسية إلى عمارة شعبية غير مخططة، فصور عمرانية حديثة مخططة تتمثل في المناطق السكنية الحضرية الحديثة والتخصيصات التي جاءت في إطار سياسة عمرانية وطنية الهدف منها ترقية المجال العمراني والمعماري على المستوى الجماعي والفردي، وتعاني من مشاكل عديدة على مستوى تسيير المجال وصعوبة التحكم في التوسع واختلالات أخرى بيئية واجتماعية... شأنها شأن المدن الجزائريةالأخرى.

2- العمران الرأسي نموذجاً للبيئة الحديثة في الجزائر

يعدّ هذا النمط من العمران النمط السائد في عملية التعمير حالياً في معظم المناطق ولا يقتصر وجوده على جهة من الجهات الحكومية التي تقيمه للأغراض العامة فحسب، بل أصبح ملكاً للأفراد والشركات الخاصة والاستثمارية، وأضحى استعماله الأساسي هو الإسكان في الدول المتقدمة والنامية على الخصوص.

وليس هذا النمط وليد العقود الأخيرة بل كانت المدينة مسرحاً له منذ بداية القرن العشرين مع محاولات الأمريكيين والأوروبيين إيجاد حلول للأعداد الهائلة من اليد العاملة التي جذبتها المؤسسة الصناعية بفعل التطور الذي أحدثه الإقلاع الصناعي مع بداية القرن التاسع عشر في أوروبا وأمريكا. ونسوق في هذا الإطار مشروع الوحدة السكنية (Unite d'Habitation) التي صممها المعماري الفرنسي "LeCorbusier" كنموذج لهذا النمط من العمران بداية العقد السادس من القرن العشرين (1964/1962) ذات السبعة عشر طابقاً والمتسعة لنحو ألف وستمئة نسمة، الموزعة شققها السكنية على ثلاثة وعشرين نموذجاً متفاوتة المساحة (Giedion.S.1697, p36).

ولئن كان هذا النموذج من العمران يحوي على إيجابيات عديدة من قبيل الاستثمار الأمثل للأرض والاقتصاد في التكاليف وإسكان العدد الكبير من السكان في أحشاء عماراته...فإنه يحتاج إلى تقنيات عالية في مجال الإنشاءات والتجهيزات المختلفة (الميكانيكية والصحية والكهربائية...) كما أنه يتطلب تكنولوجية عالية الدقة للتنفيذ والتصميم...

في سياستها العمرانية، وبغية الاستجابة للطلب الكبير في مادة السكن والارتقاء بالبيئة السكنية، تبنت الجزائر هذا النموذج منذ الاستقلال في صورة المنطقة السكنية الحضرية الحديثة، التي نتناول تداعياتها على المستوى الاجتماعي في هذه العجالة.

3– المنطقة الحضرية السكنية الحديثة:

3–1–الأبعاد العمرانية: يعدُّ الدارسون المنطقة السكنية الحضرية الحديثة بمنزلة النمط العمراني الذي استطاع في مرحلة معينة أن يستجيب لحاجات المجتمع ولو بنقائص يمكن تسجيلها لتفاديها مع الزمن، ولا تزال هذه الصورة تسهم في امتصاص الأعداد الهائلة من السكان...وقد حددت السياسة العمرانية في الجزائر أهدافاً سامية لمثل هذه المناطق السكنية غايتها إيواء الأعداد الكبيرة من السكان وتقع تحت إشراف

هيئات حكومية متخصصة (ديوان الترقية والتسيير العقاري والبلدية...) تتمثل في: الإدماج الحضري وتحسين البيئة السكنية صحياً، فضلاً عن أهداف اجتماعية واقتصادية أخرى تمكن الفرد من الاستقرار وتحقيق الذات...

3-2- الأبعاد المعمارية: تتحكم في هذا النمط الذي نطلق عليه النمط المخطط شروط تقنية واقتصادية، تعني كل المواصفات التقنية التي يجب أن تتوفر في كيفيات الإنجاز وتوفير الشبكات الضرورية من مياه شرب وصرف صحي وكهرباء وغاز وهاتف وتنظيم للمجال، وما إلى ذلك من شروط تقنية يمتلكها هذا النموذج من العمران للتمكن من تطويره والوصول إلى بيئة سكنية صحية وملائمة للإنسان...ومن ثم يطالب الفاعلون في المدينة المختصين بإنتاج معماري يجمع المعطى التقني والاجتماعي في حدود الطاقة المادية للجماعات المحلية والدولة، إلا أن هؤلاء يغفلون في كثير من الأحيان المعطيات الثقافية الاجتماعية التي يمتلكها مجتمعنا في مختلف مناطقه ، قياساً بالطلب الكثير نظراً لحدة الأزمة الناتجة عن التطور السريع في النمو الديمغرافي للمجتمع من جهة، والعرض غير المناسب لذلك وبنوعية رديئة في أغلب الأحيان...

3-3- الأبعاد الاجتماعية: بغية التغلب على أزمة طالما ضربت جذورها في أعماق المجتمع، وقصد امتصاص آثارها الاجتماعية المدمرة، فرضت المنطقة الحضرية السكنية الحديثة نفسها على طراز المدينة، كنموذج من شأنه أن يجمع بين الكثير من العائلات في مجال حضري واحد يحوي المرافق الأساسية والخدمات التي باستطاعتها تلبية حاجات المستعملين الأولية والضرورية، وتوفير الراحة النفسية لجميع الشرائح من كبار وصغار ونساء ورجال...

غير أن القراءة المباشرة لهذا النمط من خلال شققه المتكافئة في أغلب الأحيان، مساحة وتخطيطاً وحتى لوناً، توحي بأن هذه الخلية (الأسرة) التي تمثل حجر الأساس

في بناء المجتمع هي نفسها الوحدة البيولوجية التي تعمر كل الشقق المبرمجة، وكأن المصمم (المختص) يتعامل هنا مع آلة من الآلات لها المواصفات نفسها حتى ولو كبر حجمها في بعض الأحيان...شكل (4.1)

ولئن كان الهدف الأسمى لهذه الصورة العمرانية هو محاولة إيجاد مسكن للمعوزين من الطبقات المحدودة الدخل وغيرهم من شرائح المجتمع، فإننا نعتقد أن تجسيد الفكرة لا يرقى إلى المستوى المأمول من قبل المستعملين، ولا يحقق طموحات المخططين ولا المقررين، في غياب استيعاب مقبول لحاجات الأسرة بكل أبعادها، وهنا تطرح صيغة التعامل مع هذا الإنتاج من قبل المستعملين –السكان– ليرسموا علاقة مقبولة مع بيئتهم هذه التي تحضنهم في مجالها الخاص والعام، والتي نستعرض بعض ملامحها فيما يأتي:

4– العلاقة بين المستعمل و بيئته العمرانية الحديثة:

4–1– البيئة الداخلية (المجال الداخلي)

كشفت دراسة أجريناها على بيئة سكنية حديثة بمدينة باتنة أن الساكنين يلجؤون إلى إدخال تغييرات في مجالاتهم الداخلية محاولة منهم للتكيف معها إلى أقصى الحدود، وذلك استجابة لمتطلبات العائلة وحاجاتها المتنوعة، واستيعاباً لأفرادها رغم صعوبة التغيير المادي وقساوة النظام الإنشائي، ويتم ذلك بصور عديدة كما تبينه الأشكال (4.1، 4.2، 4.3) .

4–1–1– توسع داخل المسكن، بغلق مجالات كشرفة الصالة، وتوسيع الجزء الباقي من الصالة على حساب الشرفة. ويعني ذلك تحويل بعض المجالات أو جزء منها لاستيعاب نشاطات أخرى بدل التي صممت من أجلها، ويغلب في هذه التحويلات البحث عن مجالات النوم لتتناسب عدد الوحدات مع حجم الأسرة، وتستعمل في ذلك مواد البناء المختلفة تماشياً مع قدرات المستعملين المادية (الصورة الأولى للتحويل).

4-1-2- البحث عن مجالات غائبة في الصورة المطروحة للمسكن في هذه البيئة السكنية، يحققها المستعمل من جديد في مسكنه بتحويلات تسمح له بأن يحصل على مجال معيشي خالص لأفراد الأسرة يضمن بواسطة ذلك الفصل بين مجال الأجنبي ومجال الأسرة (وسط الدار) ليعيش نمط حياته فيغير بذلك مجالات أخرى (الصورة الثانية للتحويل).

4-1-3- يلجأ المستعمل إلى تحويلات أخرى يربط بواسطتها مجال الحركة بالواجهة فيستهلك بذلك جزءا من مجال آخر (الحمام) ويفصل المطبخ عن شرفته.(الصورة الثالثة للتحويل).

ونشير هنا أيضاً أن العديد من المستعملين يخضعون للأمر الواقع نظراً للطبيعة القانونية للمسكن، التي يمكن أن تنتج عنها إجراءات قانونية ليست في صالحهم (الشقق الواقعة تحت طائلة الهيئات المسيرة على الخصوص كالبلدية مثلاً حيث تعدُّ مؤجرة غير مملوكة)، ومما يزيد من حدة المشكلة ضعف القدرة المادية التي لا تسمح هذه الوضعية لصاحبها بتخصيص ما يساعده على إجراء تغييرات، ومن ثم تتحول ردة فعله إلى مقاومة ذاتية تظهر في الحد من نمو حجم العائلة، فالمعاناة من جديد تحت سقف يمتاز ببعض المواصفات الحديثة بكل امتيازاتها المادية وسلبياتها النفسية والاجتماعية.

ومما لا شك فيه أن كل هذه التغييرات تؤثر سلباً في المظهر الخارجي للمبنى، إذ يتحول وجه العمارة ليبدو الحي السكني أشكالاً وألواناً مختلفة لا يحكمها منطق جمالي ولا معماري، مما ينزع عنها الرداء الحضري الحديث، ويشوه الصورة المنقولة لدى الناظر، ومن ثم التلوث البصري الذي له تبعات صحية تنفي حينئذٍ الجانب الصحي المبتغى لهذه البيئة العمرانية...(الديب بلقاسم،2001).

4-2- البيئة الخارجية (المجال الخارجي) **:** فضلاً عن ذلك فإن ما نرصده في هذه البيئة السكنية الحديثة في العينة المدروسة، أنها تتعرض لانتهاكات صارخة لمجالاتها الخارجية المعدة للراجلين أو لمساحات حرة أو أماكن للعب الأطفال، نورد منها على سبيل المثال لا الحصر ما تبينه الصور (4.3، 4.4، 4.5، 4.6) من دلالات مهمة على المستوى الجماعي والفردي، ونفسر مثل تلك التصرفات والسلوكات من قبل المواطن على رأينا بما يأتي:

5- أسباب كامنة وراء التصرفات السلبية للمستعمل نحو البيئة العمرانية الحديثة:

5-1- قصور المنظومة التشريعية العمرانية التي تعدُّ منظماً للبيئة العمرانية، وسبباً لعدم استيعابها للإنسان الجزائري بكل أبعاده وممارساته الثقافية الاجتماعية التي تنعكس حتما سلوكياً على المجال.

5-2- الخلل في أداء الأدوار الاجتماعية التي أنيط بها المواطنون على مختلف مراتبهم، وتداخل المسؤوليات تجاه المجال العمراني، في غياب ثقافة العطاء للمجتمع والامتثال للأدوار التي حددها المجتمع للإنسان من جهة، والتملص من المسؤولية من جهة ثانية إزاء ما يحدده التشريع، نشير هنا إلى أدوار المختصين والمسيرين على الخصوص.

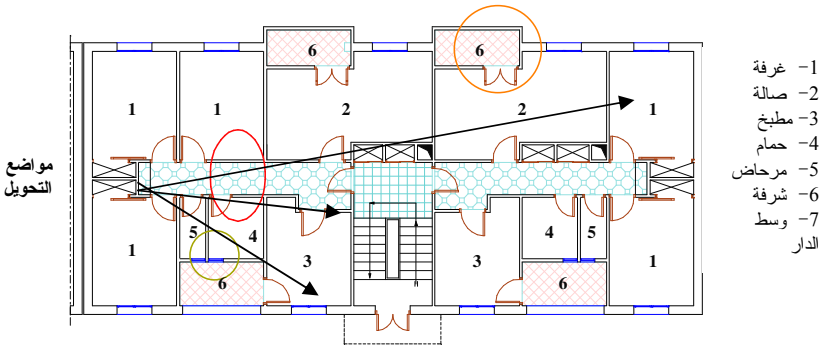

شكل (4.1) مسقط الطابق الأرضي –الصورة الأصلية للتصميم–

المصدر الباحث عن مركز الدراسات التخطيطية لولاية باتنة 1987

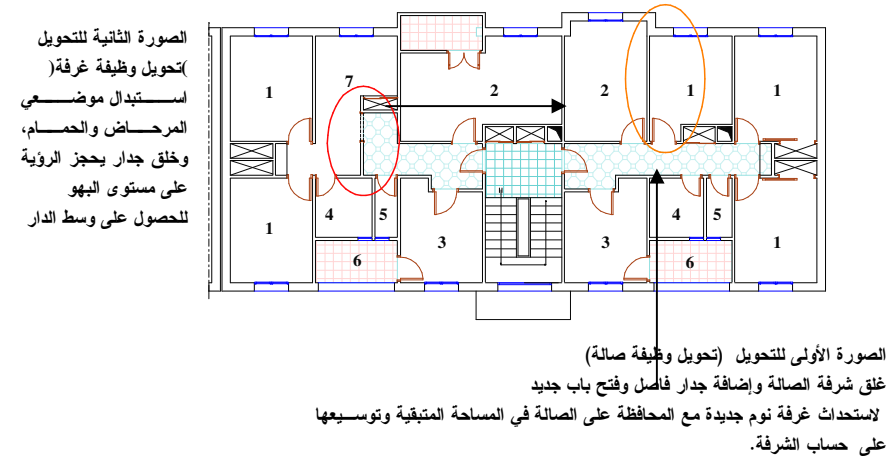

شكل (4.2) مسقط الطابق الأول – مكرر–

– صورة محولة–

الصورة الثالثة للتحويل استحداث ممر نحو شرفة المطبخ على حساب الحمام وغلق المطبخ من ناحيتها كما سجل تمديد وظيفة المطبخ إلى الشرفة والحفاظ على مجاله الأصلي كغرفة أكل في بعض الأمثلة.

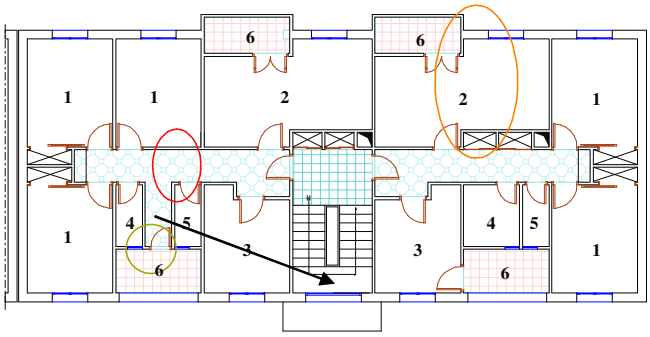

شكل (4.3) مسقط طابق علوي – مكرر–

– صورة محولة–

علاقة المستعمل ببيئتة الداخلية (المسكن)

نماذج لخلايا سكنية مطروحة لاستيعاب أسر جزائرية في إطار السكن الجماعي الحديث (المنطقة السكنية الحضرية الحديثة) من حي سوناتيبا بمدينة باتنة

المصدر : الباحث عن مركز الدراسات التخطيطية والإنجاز باتنة1987

صورة (5.1)

صورة (5.2)

لاحظ في الصورة (5.1) اليمنى شبابيك الواجهة وموادها وأشكالها، ولاحظ الطابق الأرضي كيف أغلق. وإلى يمين الصورة (5.2) كيف أغلقت الشرفة والنافذة ثم فتح مرآب في مكان النافذة ليحول جزء من الصالة إلى مرآب السيارة، وجزؤها الثاني معية الغرفة إلى محل تجاري.

لاحظ كيف أغلق بئر السلم بمواد بناء صلبة (الطوب)، لينعكس كل ذلك سلباً على واجهة المبنى

يبدو أن هذا الفعل جماعي من قبل مستعملي الجناح لغرض أمني حسب استقصائنا الميداني، لكن يبقى السؤال المطروح : أين الهيئات المشرفة على هذا المجال وصيانته؟ وأين دور المستعمل في الحفاظ عليه؟

تغييرات المجال الداخلي وانعكاسه على الواجهة العمرانية:

الصور من حي سوناتيبا – باتنة

المصدر : الباحث2001

صورة (5.3)

صورة (5.4)

لاحظ المستعمل في الصورة إلى اليمين وهو يغير المسطحة الأصلية، ببناء جدار ليحولها إلى مسطحة قابلة للاستعمال. ولاحظ إلى اليسار كيف شطبت المسطحة ومحاولة الوصول لطلاء بألوان منسجمة –إلى حد ما– مع لون المبنى الأصلي، لتصبح المسطحة قابلة للاستعمال وتفتح لها الشقتان المتجاورتان–تحويل خاص بمستعملي الشقتين على ملكية عامة–

التحويلات المباشرة على المجال الخارجي:

الصور من حي سوناتيبا – باتنة

المصدر : الباحث 2001

5–3– الأمية البيئية المستشراة في صفوف المواطنين وغياب ثقافة المدينة، التي عملت وتعمل ظاهرة التحضر السريع على شحنها في غياب الوعي نحو الحياة المدينية وما يترتب عليها من واجبات على المستعمل أن يقوم بها، ليتمكن من التكيف مع المستجدات الجديدة التي تفرزها المدينة باستمرار.

5–4– غياب الدور الحقيقي للعقل المعماري: في أبجديات تكوين المعماري مفهوم للعلاقة بين العمارة والمجتمع، ومن ثم فإن المعماري مطالب بالتخطيط للمجتمع ومحاولة الاستجابة لحاجاته المتنوعة بإنتاجه للبيئة المناسبة لتطلعاته في إطار القيم التي يحيا عليها المجتمع، والمستجدات الحديثة التي تتطور بتطوره كوحدة في العالم، إذ إنَّ عملية التخطيط الحضري تتضمن في جوهرها تساؤلا أساسيا عن القيم، أي: قيم من ستراعى في تخطيط مسكن أو حي أو مدينة ما، وهل هي قيم المخطط وأفكاره ؟ أم أنها آراء أصحاب القرار والسياسيين ورغباتهم؟ أم حاجات المستعملين وسلوكاتهم ؟ وإذا سلمنا جدلا بضرورة صعوبة تأمين كل المتطلبات، واعتماد قيم المستعملين وسلوكاتهم فكيف يمكن للمصمم أن يعرفها ويترجمها إلى مجالات وتشكيلات مدينية يتقبلها المستعمل ؟

(Bloden Diop, 1983, p138)، إذاً يعدُّ العقل المعماري والتخطيطي لكل مجتمع من أهم الموارد البشرية التي تحافظ على مكنوناتها الحضارية ولاسيّما في تشكيل بيئات سكانها التي نعدّها الوعاء الحاوي لحركية المجتمع وحضارته وبناء على ذلك فإن المجتمعات التي تولي أهمية للتكوين من خلال نفخ روح حضارتها وقيمها ومركبات هويتها في المادة التكوينية لا تجد صعوبة في الوصول إلى أهدافها...غير أن الذي يبدو هنا في هذه البيئات لا يعبر –في أغلب الأحيان– عن تلك القيم ولا عن طموحات المستعملين.

5– المعادلة الاجتماعية والإنتاج المعماري العمراني: إن تراجع بعض العناصر المعمارية مثل (الحوش، ووسط الدار...) التي كانت تؤدي دوراً اجتماعياً ووظيفياً ومناخياً (ولاسيّما في المناسبات العائلية والأفراح والأعياد...) في مثل هذه البيئات العمرانية في بلادنا، وحلول النظرة الاقتصادية للمجال، وإدخال أنظمة إنشائية جديدة تحكمها مقاييس تقنية تتعلق بأبعاد الجدران وأحجام الغرف، وأنظمة قاسية للهياكل تسمح بسرعة الإنجاز، والتي تم بواستطها إنجاز معظم المناطق الحضرية للسكن الحديث، كان لها الأثر السلبي حسب بعض الباحثين في العمل على تعميق أواصر المحبة والمسؤولية بين أفراد الأسرة والعائلة الكبيرة ، والتواصل بينهم كما كانوا عليه من قبل، حيث حدد المسكن لحجم عائلي متوسطه من ستة إلى سبعة أفراد ، كما أن قيمة الدار كإنتاج ذاتي للمستعمل تفقد قيمتها الاجتماعية والثقافية، وتحد من طموحات الفرد وتكبح نمو العائلة...(Sid Boubakeur ,1986, p 16)

كما نشير أيضاً إلى أن أثر ذلك يتجاوز الجانب المادي ليمتد إلى كيان الفرد النفسي وسلوكاته، وفي هذا السياق يرى أحد الباحثين أنه إذا كان المسكن حقاً طبيعياً وأساسياً وضرورة ملحة لحياة الإنسان، الأمر الذي دفع المجتمع الدولي للاهتمام بتوفيره ضمن الإطار الملائم له، فينبغي ألاّ يقتصر المسكن على إطاره الإنشائي فحسب، وإنما يجب أن يحتوي على مضامين تتعلق بالنواحي الإنسانية والاجتماعية

والاقتصادية، إذ إنّ فكرة السكن لا تتحقق إلا بوجود اثنين معاً هما الإنسان وسكنه كوجهين لعملة واحدة تمثلها البيئة السكنية، الأمر الذي يتطلب التعامل معا بهدف خلق البيئة السكنية الملائمة لساكنيها...وتعدُّ الوحدة السكنية أو ما يمكن أن ندعوه بالمسكن أو البيئة السكنية المصغرة من النتاجات البشرية ذات المساس المباشر بحياة الإنسان ويظهر تأثيرها في ساكنيها بشكل واضح في النواحي الاجتماعية والنفسية والسلوكية الأمر الذي يتطلب التعرف على طبيعة العلاقة الثنائية المتبادلة بين الإنسان وبيئته العمرانية سواء أكان ذلك على مستوى المسكن الواحد أو على مستوى البيئة السكنية الكبرى، إذ إنَّ ذلك سيؤدي بالتأكيد إلى تحقيق نتائج إيجابية في خلق بيئات سكنية سليمة اجتماعياً ومريحة لساكنيها...(قبيلة الماكلي، 2000، ص127).

وعليه فإن المعادلة البيولوجية التي نعتمدها في تخطيطاتنا وحدها على حساب المعادلة الاجتماعية لا تمكننا من التعامل الصريح والحقيقي مع المستعمل، بل يجب العمل بهما معاً لأنهما تدخلان ضمن تركيبة الإنسان.

6-البيئة الحديثة والثمن الاجتماعي:

لا شك أن لقيمة الجيرة أثراً في التعامل مع المجال العام، وأن عدم أخذ ذلك في الحسبان بالنسبة إلى تخطيطاتنا الحديثة يمكن أن يؤدي إلى نتائج سلبية فردية وجماعية تنعكس على المجال والإنسان، وتظهر دراستنا على مستوى العينة المدروسة أن لأصول السكان وظروفهم الاجتماعية وبيئاتهم السكنية التي تختلف من مجتمع محلي إلى آخر، عندما تنقل إلى بيئة موحدة وتجمع في محيط عمراني واحد أثر في موقفهم وتصرفاتهم إزاء بيئتهم الجديدة.

عندما تستشري ظاهرة التفرد وحب الذات يتنافس الأفراد على احتلال المجال العام بشتى الطرائق والوسائل.
وعندما يترك المختص ثغرة في التصميم يجد المستعمل فرصة للتدخل بما يناسب حاجاته.(لاحظ الطابق الأرضي في الصورة (5.6)

الصورة (5.5)

عندما يغيب الوازع الاجتماعي تنكمش القيم الجماعية التي تدفع الفرد لعدم التفكير في غيره من شركاء المجال.

لاحظ في هذه الصورة كيف عمد المستعمل إلى تحديد محله وتسقيفه محتلاً حيزاً من واجهة شقته وبصورة تتماشى وذوقه، وذلك على حساب المجال الخارجي وواجهة العمارة كلها، ودون مراعاة للنتائج المترتبة عن ذلك

صورة (5.6)

استغلال المجال الخارجي لأغراض شخصية

الصور من حي سوناتيبا – باتنة

المصدر : الباحث 2001

لا نبالغ إذا قلنا: إنَّ النازحين أو المنقولين من بيئات معيشية وعمرانية عديدة، تتميز بانسجام اجتماعي معين، أي عاشوا في مجموعات محلية تحظى بأنساق اجتماعية صهرتها ظروفهم القاسية، سيصطدمون بالمعطيات الجديدة التي تحتمهم للدخول في نمط جديد للحياة، يتطلب نوعاً من العلاقات المميزة، إذ يصبح الفرد ملزماً، بالانسجام والتكيف مع جيران جدد، يستعملون على الأقل السلم نفسه ومدخل العمارة نفسه، وحري بالقادمين الجدد تعميق الوشائج القديمة وتقويتها لكي تتلاءم مع المجال السكني الجديد وهو ما يمكن تحقيقه بسهولة ، ومن هنا يظهر الشرخ بين المجال الخارجي والعائلة، حيث يتقلص المجال الاجتماعي الممثل في الموطن الأصلي بامتداد مجال المسكن إلى الخارج بالنسبة إلى كل الفئات ليصل إلى حدود مدخل المسكن أو على مستوى بئر السلم أو على مستوى الواجهة وفي أوقات قصيرة من النهار بدلاً من ذلك، مما يدفع لبروز ظاهرة الاهتمام بالذات والانعزال عن الآخرين (الديب بلقاسم ، 2001).

وإذا كان المجال الاجتماعي في الموطن الأصلي يكتنفه الدفء الذي يجمع بين أفراد الحي أو الشارع أو الحارة على مختلف شرائحهم ولاسيّما في المناسبات والأعياد وخارج أوقات العمل، فإن ذلك قلما يحدث على مستوى هذه البيئة الحديثة وإلى ذلك يشير أحد الباحثين في قوله: "على خلاف الأحياء الشعبية التي تتمتع بذلك الرباط الاجتماعي المتين، ومظاهر التماسك الاجتماعي كالتزاور والتعاون...فإنه هنا تضعف العلاقات بين الناس في الجيرة نفسها، وتبرز المظاهر الفردية والتحوصل الاجتماعي..."(عبد المنعم شوقي، 1983. ص150).

وإذا كان بعض الباحثين يرون أن تطوراً طرأ على العائلة الجزائرية وتغيراً اعترى ذهنية الفرد الجزائري، من جراء ما أحدثه هذا النوع من التعمير الحديث في التصور الإيديولوجي للحاجات، إذ يراه الكثير بمنزلة تقدم وارتقاء في السلم الاجتماعي، ويعيدون ذلك إلى مرحلة ما قبل الاستقلال حيث تأثير النمط الأوروبي في

العديد من شرائح المجتمع الجزائري الميسورة الحال آنذاك والذي عرف توسعاً في المرحلة اللاحقة لقاعدة الهرم الاجتماعي(Sid Boubakeur. 1983. P16)، فإنه يمكننا القول: إنَّ العائلة الجزائرية في نمو وتغير مستمر لمواكبة روح العصر، ونحن لا ننكر استهلاك مثل هذه الحاجات المتجددة التي نعدّها إنتاج عقل بشري في تطور مستمر، لكن تلك القيم الاجتماعية التي اتسم بها مجتمعنا منذ أمد بعيد والتي لا تتعارض مع هذه الآليات الحديثة والمعطيات الجديدة، ما السبب في انكماشها وتراجعها، لتظهر قيم أخرى يتبناها عادة المجتمع المادي على واقع المجال الحضري في الكثير من المناطق السكنية الحديثة على مستوى مدننا، وندعم رأينا هذا بما أورده الباحث نفسه في هذا الشأن إذ يقول:"...إن تلك التغيرات يصحبها فقدان بعض القيم والعادات لقيمتها شيئاً فشيئاً، ومن ثم تراجع قواعد الحياة الجماعية من تضامن وقيم دينية، ويفسر ذلك بتعميق النزعة الفردية والبحث عن الشهرة...(Sid Boubakeur. 1983. 26.).

وهنا نعود إلى أهمية القيم الاجتماعية في تحريك النظام الاجتماعي والمحافظة على نسقه، وأثرها في ذلك إذا تقهقرت في داخل الفرد حيث تؤكد بعض الدراسات أن الحياة الاجتماعية تصبح مستحيلةمن من دون القيم، ومن دونها لا يستطيع النسق الاجتماعي تأدية وظائفه في تحقيق أهداف الجماعة، ولا يمكن أن تستمر الحياة الاجتماعية من دون معايير في داخل الفرد...وقد لا نبالغ إذا استنتجنا من ذلك أنه من دون القيم لا يمكن أن تتكامل الشخصية أو تنتظم الجماعة..."(سامية حسن الساعاتي 1983، ص 192).

6– البيئة الحديثة والتفاعل الاجتماعي:

يؤدي التفاعل الاجتماعي دوراً فعالاً في شحن الحياة الاجتماعية وتمتين العلاقات بين أفراد المجتمع عموما والمجتمع المحلي على الخصوص (نقصد بالمجتمع المحلي

هنا السكان الذين يستعملون محلة سكنية أو حياً أو شارعاً...)، وتضمنه (التفاعل) في المدينة عناصر تركيبية عمرانية كالساحات والشوارع وما إلى ذلك من مبانٍ ومجالات معدة لهذا الغرض...وإن عدم توفر بيئتنا السكنية الحديثة على تلك العناصر التي من شأنها أن تستوقف المستعملين وتلفت الانتباه إلى أنّ هناك شركاء في استعمال الفراغ يفترض الاتصال بهم، ولاسيّما المجالات الحرة المعدة للعب الأطفال في المناطق السكنية الحضرية الحديثة، باعتبار الأولاد يشكلون اللحمة بين الآباء على رأي بعض المختصين...(قبيلة المالكي، 2000، ص 127) مما لا يتيح فرصة التواصل بين المستعملين كما ينبغي.

وفي هذا السياق يعرف " رابوبور" الحضارة بأنها ممارسات لمجموعة من البشر يشتركون في مجموعة من القيم والمعتقدات ووجهات النظر ونظام الرموز التي تعلم وتنتقل عبر الأجيال فتخلق نظاما من القواعد والأعراف والعادات التي تعكس الأفكار والمفاهيم فتحدد بذلك أسلوب الحياة والسلوكيات والعادات وحتى الأشكال البنائية والعمارة، وتحكم كل ذلك خلفية نشوء هؤلاء البشر في بيئتهم الطبيعية والثقافية ويقرر أن هناك صلة وثيقة بين إدراك الإنسان للبيئة والسلوك البشري تجاهها، ومن ثم فإن تصميم البيئة محاولة لإعطائها شكلاً تعبيرياً واقعياً لبعض المفاهيم والأفكار والصور الذهنية لبيئة خالية، أي تحويل تلك البيئة إلى واقع ملموس يتجسد في تشكيلات مجالية مرتبطة بعلاقات تنظيمية تعبر بشكل أو بآخر عن المعنى لامتلاكه صفات وخصائص رمزية واتصالية وتمثل هذه العلاقات التنظيمية فعل الإنسان في البيئة مجسداً القيم والمعتقدات والمعاني والعادات والتقاليد... ومن ثمَّ أسلوب الحياة الذي تحدده، وبذلك فالتنظيم المجالي يتأثر بالفعاليات البشرية المختلفة، وكرد فعل عكسي تؤثر البيئة في ساكنيها وسلوكهم وأسلوب حياتهم..."(Rapaport. A, 1977 ,P 5,11).

وهكذا يصبح جلياً أن للسلوك البشري أثراً في البيئة العمرانية تتجسد في التعبير عن العلاقة بين الهيكل المعماري العمراني من جهة والاجتماعي من جهة ثانية، ومن

أجل تعزيز التفاعل الاجتماعي الفعال لمجتمع معين ينبغي على البيئة توفير وسط أو أوساط ملائمة لتشكيل سلوك الأشخاص، الذي يتم من خلاله تبادل المشاعر الطيبة مع الآخرين، وتحقيق مستوى من الحاجات النفسية المهمة كالأمان والذات والعناية بالآخرين...

وقد بين أحد الباحثين العلاقة بين العناصر العمرانية والاجتماعية (الفرد والأسرة والمجتمع) عندما أشاروا إلى وجود شبكتين أساسيتين هما: شبكة النشاطات البشرية، وشبكة المجالات العمرانية، مؤكداً شمولية هذا لكل البيئات والمجتمعات، موضحا أن تغير إحدى الشبكتين إنما يعني تغير الشبكة الثانية...إن أهمية التفاعل الاجتماعي في تشكيل المجالات على مستوى النسيج العمراني (الحي السكني أو المدينة) أو على مستوى الوحدة السكنية (المسكن) يسمح للفرد باكتشاف نفسه من خلال العوالم الاجتماعية التي ينتمي إليها والتي تختلف في حجمها، والتوزيع المجالي للمشتركين فيها ومدى انتماء أفرادها إلى تلك العوالم...يضاف إلى ذلك ما يخلفه تفاعل الناس من فئات وخلفيات مختلفة من علاقات حميمة تسهم في إحداث تغيرات إيجابية في مواقفهم تجاه بعضهم بعضاً، فحدوث التفاعل الاجتماعي الإيجابي الكافي بين ساكني بيئة معينة يقلل من التخريب ومن أمراض اجتماعية أخرى بسبب اهتمام الناس بعضهم ببعض...(قبيلة المالكي، 2000، ص 127)، ويعني ذلك أن البيئة العمرانية الحديثة يمكن أن تحدث شرخا في العلاقة الاجتماعية مما يؤثر سلباً في التواصل والتفاعل الاجتماعيين.

خلاصة:

إذا كانت البيئة العمرانية العتيقة التي تزخر بها بلادنا تفتقر إلى الكثير من الميزات التقنية والفنية وميزات أخرى فإن البيئة العمرانية الحديثة ورغم توفرها على معطيات تقنية وتكنولوجية مهمة لم تنجح في استيعاب الإنسان المستعمل لها داخلاً

وخارجاً، ومن الطبيعي أن ينعكس ذلك على وجه هذه البيئة بما لا يخدم الوجه الحضري للصورة العمرانية ولا الوجه الحضاري للمجتمع.

وإذا كان المختص لم يخف في تخطيطه أهمية المجال الاجتماعي داخلاً وخارجاً في البيئة الحديثة، فإن الشكل والمضمون اللذين أعطاهما لهذا المجال لا يزالان عاجزين عن تلبية الحاجات المتجددة للإنسان، ونعتقد أن هذه الدائرة المفرغة التي ما زالت مثل هذه الوظيفة (السكن) تدور فيها، لها أسباب تتجاوز بكثير البعد المادي للمجال، لتتعداه إلى البعد الاجتماعي–النفسي، وبذلك أضحى الإنسان في صراع مستمر مع بيئته في معظم الأحيان.

وقد بيننا بما لا يدع الشك أن العلاقة متبادلة بين البيئة العمرانية والمستعمل ولها الأهمية البالغة في تشكيل الرؤية السلبية للمجال المعماري والعمراني في بيئتنا الحديثة، وأن البيئة العمرانية ليست بريئة من إحداث الخلل ، وما ينتج عن ذلك من أمراض اجتماعية تعمل على خلخلة العلاقات بين شركاء المجال (التفرد وحب الذات، تراجع قيمة الجيرة...)، وأن المنظومة العمرانية التي لا تنطلق من المجتمع ذاته لا يمكنها أن تستوعبه، كما أن تكامل المعادلتين البيولوجية والاجتماعية، وصياغة العقل المعماري الذي يستطيع جعلهما واقعاً بات أمراً لا مناص منه، فضلاً عن أن التوعية البيئية تطرح وبإلحاح نفسها في واقع المجتمع، مما يفرض علينا مراجعة برامج التأهيل والتكوين لصياغة عقل معماري يتكفل بحاجات الإنسان الجزائري بعيداً عن النظرة الروبوتيكية إزاء متطلباته وطموحاته.

المراجع

1– د.إبراهيم مدكور وآخرون، 1975، معجم العلوم الإجماعية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة.

2– الديب بلقاسم، 2001،أثر الخلل الاجتماعي على المجال العمراني–دراسة ميدانية مقارنة بين مدينتي

بسكرة وباتنة، رسالة دكتوراه دولة غير منشورة، جامعة قسنطينة، الجزائر.

3– د.سامية حسن الساعاتي، 1983، الثقافة والشخصية– بحث في علم الاجتماع الثقافي، دار النهضة

العربية بيروت، لبنان.

4– د.عبد المنعم شوقي، 1983، مجتمع المدينة. دار المعارف القاهرة.

5–قبيلة فارس المالكي، 2000، مجتمعية العمارة العربية–العمارة بين نزوع المجتمع وواقع الحال،

المؤتمر المعماري الأردني الثاني حول العمارة والبيئة (نحو عمارة مستدامة).عمان، الأردن.

6– مكتب الدراسات والإنجاز لولاية باتنة

7– مديرية التخطيط لولاية باتنة.

8– المصالح التقنية لبلدية باتنة.

9– مصلحة الأرصاد الجوي لمدينة باتنة.

10- Blodin Diop, 1983, Habitat Planifié. In Lecture de la Ville Contemporaine.Aghakhan.

11- Giedion.S, Space Time and Architecture, 1976, Cambridge, Massachusetts Harvard University Pres.

12-Sid Boubakur, 1986, l'Habitat en Algerie, OPU, Alger.

13 -Rapoport, Amos, 1977, Human aspect of urban form, Oxford, Pergamon press.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2005/7/13.